«شاعرية الأرض».. النار والتراب والماء يوحدها الخزف فنيا

الطين يسرد تحوّلاته وتجلياته الغنائية المختلفة في معرض نسوي لبناني

قدّمت صالة موجو الفنية في بيروت معرضا غنيا لأعمال مصنوعة من السيراميك لمجموعة كبيرة من الفنانات اللبنانيات تحت عنوان "شاعرية الأرض"، قاصدة بهذا العنوان الطين وتحوّلاته وتجلياته الغنائية المختلفة والخارجة من تحت أيادي هؤلاء الفنانات. ومن المعروف عن هذه الصالة اللبنانية تشجيعها الدائم للفنانين المكرّسين والصاعدين على حد السواء في زمن بات فيه العرض الفني من أصعب الأنشطة.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

فن الخزف فن عريق عراقة الإنسان وقدم آثاره الملقاة والمحفوظة على السواء والناجية من الزمن في باطن الأرض. حرفة هي وفن نشأ في أمان تجاويف المغاور، وعلى أكتاف الجبال وعلى حفاف الأنهار.

الأنهار التي استقى منها الإنسان ماء خُلط به التراب وجُفّف مزيجه ليصبح صلبا كفاية ليليق بأن يكون "خزفا"، بل قوارب مغلقة يودع فيها الأحباب استعدادا لرحلتهم إلى العالم الآخر.

وجعل الإنسان أيضا من الطين المشكّل أوعية وقوارير جمّع فيها مطر الشتاء لأيام القحط، ثم مستوعبات وجرارا ليكنز فيها محاصيل الحبوب والثمار. واستمر الطين، المشكّل بقوة النار، وظل يتبلور شكلا ومضمونا حتى يومنا هذا.

من النفعي إلى الجمالي

ليس المعرض اللبناني المشترك الذي تقدّمه صالة موجو الفنية والمعنون بـ"شاعرية الأرض"، إلاّ تذكيرا واحتفاء بعراقة هذه المادة وبجمالية الخزف المصنوع منها.

الفنانات الحرفيات المشاركات هنّ: ندى رزق، كوليت إرسلان، ماريان سرجي، وداد يزبك، ياسمينة خليفة، زينا أبوالحصن، غيتا ملكي، نجوى نحاس ورنا يازجي. قدّمت كل فنانة ما بين أربعة وعشرة أعمال نحتية.

ولعل كون الأعمال الفنية المعروضة قد أنجزتها بأكملها مجموعة من نساء فنانات ليس بينهن رجل واحد، يعطي لهذا المعرض بعدا إضافيا ألقى الضوء على صفات الأرض المشتركة مع المرأة ككائن خلاّق وحاضن، يتمتّع بخاصية الانسجام الروحي والعقلي التام ما بين اليد وما يبتكره العقل والقلب على السواء.

بعد مرور أجيال عديدة اكتسبت هذه الصناعة، التي كانت في صميم العمل النفعي المعيشي المصنوع من الطين، والذي لعبت النار في تأليفه دورا رئيسيا، اسما آخر وهو "الخزف"، ليخرج بذلك عن محدودية تعريفه ومن كونه صنعة نفعية وحاجة معيشية بحتة إلى فن له قواعده وأساليب معالجته وأشكاله وأدواته وألوانه المختلفة. وبات يعتبر جزءا لا يتجزأ من عالم الفن التشكيلي حتى وإن حافظ على خاصيته النفعية.

تشكيل من طين ونحت فني وصل في أعمال عربية وعالمية كثيرة إلى التجريدية القصوى، فانتفت صفته النفعية ليكون محض حضور جمالي يستفزّ أو يجذب ويشي بأفكار ومشاعر صانعه الفنان، الذي أدرك حرفة صناعته "العلمية" ونفخ فيه روح الفن كي يعبّر عن تجارب ومواقف وآراء وأمزجة شخصية مختلفة.

ولم يخرج المعرض الذي قدّمته الصالة عن هذا المنطق المعاصر لفن الخزف. فزائر المعرض اكتشف مجموعة أعمال كبيرة شديدة الاختلاف ومختلفة الأحجام، لكنها كلها وقعت تحت شعار الفن المعاصر والقدرة على استنطاق المادة وتطويعها لتقول كل ما أراد الفنان قوله.

وتعرّف الصالة المعرض بهذه الكلمات "شاعرية أرضية"، هي قصيدة شعر ما بين الأرض والفنان. اليوم، أكثر من أي يوم مضى، الأسى الذي نعيشه كلبنانيين يدفعنا إلى أن نعيد صلتنا بالأرض. الأرض التي هي شعار للجمال وللقدرة على الاحتمال في آن واحد. من خلال تلك القصائد النحتية تعقد الفنانات المشاركات الصلة ما بينهنّ وبين زائري المعرض. معرض يستعرض من خلال الأعمال الإصرار على الاستمرارية والبقاء على الرغم من حدة النار، لا بل تحويل النار إلى قوة فاعلة تشيّد ولا تدمر.. كما تُحدث شدّة الضغط والحرارة، حجر الألماس في باطن الأرض.

لا غرابة في ذلك أبدا. إذ كما يتحوّل الفحم إلى ألماس كذلك يتحوّل الطين الأخرس بين يديّ الفنان وتحت جناح خياله إلى لغة حمّالة للمعاني والأفكار.

حذاء سحري لامع يحيل إلى قصص خرافية

صلابة قابلة للكسر

في المعرض أعمال متنوّعة جدا، منها التبسيطي من خلال أشكال تحاكي الأواني والأطباق مختلفة الأشكال دون أن تكون صالحة للاستخدام بقدر ما هي داعية إلى التأمل والتمعّن. ومنها الجماليّ الذي يقدّم للزائر الفرصة الحرّة لاقتنائها ثم استخدامها بأكثر من طريقة وطريقة. مثالنا في ذلك "تاج" أسود اللون وربما هو ليس تاجا، ومعرفة ماهيته تختلف من شخص إلى آخر.

ومنها التجريدي الذي يحاكي مشاهد طبيعية وأشياء عضوية وغير عضوية، وكائنات مجهرية غرائبية دون أن تكونها تماما. ومنها ما هو تشكيليّ "عابث" وطريف، ونذكر هنا منحوتة تجسّد رأس رجل يرسل نظره إلى جهة واحدة من المساحة الكامن فيها (أي الصالة في هذه الحالة) وعلى رأسه ضفدع ضخم هو رهن إشارته.

كما يعثر الزائر في المعرض على حذاء مصقول ولامع وشديد الطرافة ومشغول بدقة خطوط لافتة تجعله كثير الواقعية، ممّا يحيلنا إلى قصص خرافية قرأناها في طفولتنا، حيث برزت أحذية سحرية لامعة لا تخصّ إلاّ الأبطال الذين ينتصرون حتما أو الأشرار الذين يخسرون دائما في نهاياتها.

ومن الأعمال نذكر عملا خزفيا متألّفا من ثلاثة أجزاء غير متّحدة ويمثل نبات الفطر. ونكاد نشعر أمام هذا التشكيل الخزفي برطوبة وإسفنجية سطحه التي تحاكي نبات الفطر الطبيعي.

ومن ناحية أخرى ثمة أعمال ظهر فيها التقعّر شديدا وعميقا حتى التوت أطرافه وبدا وكأن هذا التقعّر، وبالمطلق هو الفكرة المراد التعبير عنها.

أعمال يظهر فيها التقعّر شديدا وعميقا حتى التوت أطرافه، وبدا وكأن هذا التقعّر هو الفكرة المراد التعبير عنها

ومن الأعمال ما يشبه تمزّقات صلبة التصقت ببعضها البعض، لكنها معلنة أنها مهدّدة بالانهيار. ومن المنحوتات ما يجعل الزائر يتمتّع بلمعانها، التي هي الطبقة الزجاجية الدقيقة التي ظهرت كطلاء سدّ مسام العمل وجعله أكثر صلابة وبريقا.

وتبقى هذه الصلابة من ناحية المظهر متناقضة مع قابلية الخزف للكسر في حال وقوعه أو اصطدامه بمادة صلبة. ولعل ذلك من الصفات التي تجعله أكثر جمالا وواقعية، لأنه بذلك يشبه طبيعة الإنسان في صلابته وفي قابليته للانكسار والتشظي، ولكن أيضا في إمكانية أن يستجمع شتاته وأن "تقوم قيامته" من جديد بوجه الألم وبوجه الدمار.

من ناحية أخرى ثمة أعمال خزفية مصقولة الملمس وأخرى شديدة اللمعان، ومنها الملوّن بألوان الأرض، ومنها ما هو غضّ ارتأت صاحبته، أي الفنانة، أن تبقيه فجّا وخاما.

وإن كان ثمة ما يجمع بين تلك الأعمال الفنية، فهو أن أكثريتها الساحقة لم تستخدم اللون كمادة تلوينية، بل كجزء لا يتجزأ من خامة العمل و"شخصيته"، إذا صحّ التعبير. وربما لأجل ذلك ابتعدت الأعمال عن "التزينية" التي لا ضير فيها، ولكنها تنتمي إلى عالم آخر تماما.

لغة حمّالة للمعاني والأفكار

أعمال الجزائري طاهر بلال تنقد المجتمع الاستهلاكي عبر جلود الحيوانات

الجزائر – يتواصل حتى الثالث والعشرين من سبتمبر الجاري بغاليري الزوّار بالعاصمة الجزائر، معرض بعنوان "الفنّ على حافة الجلد" للفنان التشكيلي الجزائري طاهر بلال.

ويستخدم الفنان المولود عام 1968 بتيزي وزو مواد جديدة لتشكيل اللوحة الفنية، من أبرزها جلود الحيوانات. وسبق له أن أقام معارض اتخذت من هذا الأسلوب سبيلا إبداعيا حقّق من خلاله حضورا لافتا.

وفضلا عن كونه تشكيليا، يمتلك بلال موهبة في التصوير الفوتوغرافي، وهو يعدّ أوّل من نقل الجلد من سياقه الحرفي إلى الفن التشكيلي، واستخدمه كمادة أساسية في عمله، اعتبرها عدد من النقّاد مرحلة محورية في التعبير الفني المعاصر، كمفهوم مرئي جديد أطلق عليه "فنّ على حافة الجلد".

ويرى بلال أنّ أعمال معرضه الأخير تستمدّ خصوصيتها من الأسلوب الذي اعتمده في تشكيل لوحاته، وكذلك من المواضيع التي اشتغل عليها، على غرار الأميّة وانهيار القيم الاجتماعية والإقصاء والعنصرية والإرهاب والتخلّف العلمي والاقتصادي والمشكلات البيئية.

ويؤكّد الفنان أنّ اعتماده على اللون الأسود في الكثير من أعماله يرمزُ إلى التصحّر الثقافي الذي أصبح علامة تطبع الحياة الاجتماعية المعاصرة، وهو القاسم المشترك بين معظم شعوب العالم الثالث.

نقد ساخر لثقافة الاستهلاك

وقد جسّد الفنان ذلك بشكل ساخر في إحدى لوحاته، حيث استبدل صورة قرص موسيقي وشرائح بطاطا وخسّ وطماطم، بصورة الوجبة الأميركية الشهيرة "ساندويتش البورغر"، ووضع بجانبها شوكة ومجموعة ألوان زيتية، ليُقدّم رسالة مفادُها أنه لا ضير من الجمع بين غذاء البطن وغذاء العقل والروح.

ويُبرز المعرض اعتماد الفنان، بشكل أساسي، على قطع من الجلد الملوّنة، التي يقوم بلصقها على الورق، للتعبير عن موضوعاته. وفي هذا الشأن، يؤكّد الفنان أنّ قطع الجلد، التي استعملها في لوحاته، جُمعت من بقايا الجلود التي كانت مصانع حقائب اليد الفاخرة تستوردُها من إيطاليا في سبعينات القرن الماضي.

ولم يكن استرجاعُه لها، واستعمالُها، إلاّ كنوع من الاعتراف بالجميل لتلك الحيوانات التي تُشكّلُ عنصرا مهمّا في استمرار البشرية، قائلا في هذا الخصوص "ذلك أنّنا نأكلُ لحومها، ونستعمل جلودها في الكثير من شؤون حياتنا، وقد آن الأوان لأن تجد لها مكانا في أعمالنا الفنية".

ومعلوم أن العديد من الماركات العالمية الإيطالية والألمانية والروسية والبريطانية والفرنسية أخضعت الجلود والفراء لتصاميم عالمية، ربما استنفرت بصورة أو بأخرى خبراء البيئة الذين وضعوا قوانين لحماية الحيوانات التي تصطاد للانتفاع من جلودها وفرائها، خوفا عليها من الانقراض.

ولكن يبدو أن الأناقة "فوق كل القوانين" تفرض المنطق الأقوى، إلاّ في حالات استثنائية بسيطة، فستظل هذه الحيوانات تلهث إلى الأدغال والجحور خوفا من طلقات الصيادين والقناصة الطائشة التي تضع حدا لحياة حيوانات كانت يوما تتعلّق بالحياة، ولكن الأناقة فوق كل اعتبار من وجهة نظر القائمين عليها، وهو ما يرفضه بلال وإن كان يستعمل جلود الحيوانات في أعماله، ليس استثمارا غائيا تجاريا، بل تخليدا لها في أعمال فنية تنتصر للقيمة الجمالية قبل النفعية.

والرسم على الجلد يخلّد الفنان والرسم معا، فهو لا يبلى أبدا بل يزداد عراقة وأصالة مع السنين، وهو ما يسعى إلى ترسيخه بلال من خلال أعماله التي يمزج فيها الخامات الطبيعية، جلد الحيوان، والخامات الصناعية، عجينة الألوان، فيكون الخلط بينهما بمثابة السفر إلى عالمين متناقضين، لكنهما يتكاملان جماليا.

ويُلاحظُ في جلّ أعمال بلال المعروضة في غاليري الزوّار، أنّها مرفوقة بعناوين باللُّغة الفرنسية أحيانا وبالإنجليزية في أحيان أخرى، كلها مستوحاة من كتابات شعراء وكُتّاب جزائريين معروفين، أمثال رشيد ميموني وجمال عمراني، ومولود معمري ومولود فرعون، وكتابات أدباء أجانب، على غرار أرنست همنغواي ووليام فولكنر وجان كوكتو وفيكتور هوغو.

وهذه الكتابات باللغات الثلاث تعكس ثقافة الفنان الذي لم يمكث طويلا في وظيفته أستاذا للّغة الإنجليزية، إذ استقال بدافع من شغفه بالرسم، لكنّه اضطر للعمل في التجارة ومرشدا سياحيًا ليكسب قوته.

وقد شكّلت سنة 2001 بداية مغامرته الفنيّة التي خاضها متسلحا بعصاميته وقوة إرادته وثقافته الواسعة، فكان أن نظّم العام 2016 أول معرض فردي له بمدينة تيزي وزو شرق الجزائر.

ومنذ ذلك التاريخ، لم يُشارك في أيّ نشاط فنّي، وظلّ يجمعُ شتات أفكاره، إلى أن أُتيحت له فرصة عرض أربعين لوحة بغاليري حسين عسلة بالعاصمة الجزائر في العام 2019، وقد مثّل هذا المعرض نقلة نوعية في مسار بلال التشكيلي، إذ حظي بإشادات نقدية ومواكبة إعلامية هامة قرّبت أعماله إلى الجمهور الجزائري.

طاهر بلال

اللون الأسود يرمزُ عندي إلى التصحر الثقافي الذي طبع حياتنا

ولا تخلو أعمال بلال في مجملها من الرموز الأمازيغية وهو المنحدر من منطقة واسيف بتيزي وزو ذات الأصول البربرية، وعن رموزه يقول "أشتغل في بعض لوحاتي على الرمز الأمازيغي لأنه تراث تاريخي يخصني كجزائري".

وهو بذلك ينتصر في جل لوحاته إلى أبجدية تيفيناغ الضاربة في أعماق التاريخ الجزائري ليسرد من كل حرف ورمز قصة وعاطفة وذاكرة.

وتيفيناغ أبجدية استخدمها الأمازيغ بمنطقة شمال أفريقيا في عصور ما قبل الميلاد لكتابة لغتهم والتعبير عن طقوسهم وشعائرهم الدينية، واختفت لاحقا قرونا طويلة، فانحسر وجودها إلى الفضاء الثقافي والعرقي لشعب الطوارق بالصحراء الكبرى، ثم أحياها مثقفون جزائريون بإنشائهم "الأكاديمية الأمازيغية" في باريس في العام 1966.

وفي ثمانينات القرن الماضي اعتمد حرف تيفيناغ لكتابة الأمازيغية في الجزائر، ثم في المغرب إثر تأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية عام 2005.